الرواية المكتوبة باللغة الفرنسية في المغرب العربي - بين لغة المنفى وكتابة الزلفى-

أ.د سليمة لوكام

دخل جنس الرواية مجال الإبداع العربي منذ قرن ونيّف، تحقّق فيه كمّ متراكم، وأثبت الروائيّ العربيّ فيه حضورا متميّزا أهّل الرواية لأن تثبّت قَدَمَها، وتبلغ بخصوصيّة جماليّاتها، وعمق موضوعاتها مبلغا تضاهي بها الروايات العالمية، فترجمت إلى اللغات الأجنبية، وصار لها قرّاء كثر في كلّ أصقاع العالم.

هذا فيما هوموصول بالرّواية المكتوبة باللغة العربيّة، لكن ما مصير الرواية المكتوبة بأقلام عربيّة بلغات أخرى، كالإنجليزية (أهداف سويف،...) وكالفرنسية(أمين معلوف، آسيا جبار، الطاهر بن جلّون...) ، هذه الأخيرة صار أمرها إلى رسوخ - في المغرب العربي- بعد أن تجاوز سنّ وجودها نصف القرن من الزمان، وبعد أن استطاعت هي أيضا أن تشدّ القرّاء إليها، وأن تُلفت انتباه النقاد، فتحوز على كثير من الجوائز العالمية (جائزة "الجونكور" للرواية، الترشيح صار أمرها إلى رسوخ - في المغرب العربي- بعد أن تجاوز سنّ وجودها نصف القرن من الزمان، وبعد أن استطاعت هي أيضا أن تشدّ القرّاء إليها، وأن تُلفت انتباه النقاد، فتحوز على كثير من الجوائز العالمية (جائزة "الجونكور" للرواية، الترشيح لجائزة نوبل أكثر من مرّة...)

طُرحت هذه الإشكالية بحدّة، وجَرَتْ نقاشات فكرية ونقدية في مسألة وجوب مراعاة الظرف التاريخي الذي وُجدت فيه دول المغرب العربي، وتحديدا، الجزائر التي عانت من استعمار استيطاني شرس سعى جاهدا لمحومقوّمات هويّتها الوطنية، "وأبرزها اللغة.

أمّا الإشكالية الكبرى التي يتأسّس عليها البحث فتنبني على مجموعة من الأسئلة:

-إلى أيّ مدى يكون معيار "لغة الإبداع" فاصلا في تحديد هويّته؟

- أليس ما استكنّ في أطواء هذه الروايات من مرجعيّات وموضوعات مستقاة من بيئة عربيّة، ممثّلة لأنا عربيّة بحمولتها الثقافية والحضاريّة كافية لأن تجعل هذه الرواية عربية بامتياز؟

- هل يمكن إقصاء جيل الرّواد الذي نُفي قَسْرا إلى اللغة الفرنسية من المشهد الروائي العربي، مع العلم أنّ الأدب الفرنسي كان قد أقصى هذه النصوص لمّا صنّفها ضمن "الأدب الفرانكفوني"، ولم يمنحها جنسية "الأدب الفرنسي"؟

- وفي المقابل لمَ يصرّ جيل ما بعد الاستقلال على الكتابة باللغة الفرنسية؟ ولمَ اتّجه بعض من كانوا يكتبون باللغة العربية إلى الكتابة باللغة الفرنسية؟

الكتابة بلغة الآخر: المنفى والاختيار

ونحن إذ نطرح هذه الأسئلة المنهجيّة الصّارمة، فإنّنا لا نخال أحدا يعارض الإجماع الذي يكاد ينعقد على أنّ الأدب في أظهر حدوده تجلّ تعبيريّ لسانيّ ينطق بمكنونات ثقافة الأمّة التي تنتجه، ويتلوّن بتلاوين هويّتها، ومن ثمّ تكون اللغة التي يتوسّلها هذا الأدب مرتكزا قويّا، بها يتقوّى الإبداع ويشيّد جماليّته، وعليها تراهن الرؤية وتتسلّل من مساماتها.

ولكنّ ما نحن إليه بسبيل قد ينزاح قليلا عن هذا الطّرح، ويخرق بعضا ممّا تمّت المواضعة عليه في علاقة اللّغة بالإبداع، والأدب تحديدا.

يتعلّق الأمر ههنا، بالأدب الذي دبّجته أيد عربيّة بلغة أجنبيّة هي اللّغة الفرنسيّة، بالرّواية التي خطّتها أقلام جزائريّة ومغربية وتونسية نطقت لا بلُغَة المتنبّي وطه حسين، ولكن بلغة "فكتور هيجو" و"ألبير كامي"، ولعلّها فيما أبدعت بلغت مبلغا صيّرها حقيقة بتبوّء مكانة جُلّى في محافل الأدب والإبداع العالميّ. وهنا يبدوطرح السّؤال ملحّا: لمَ كَتب هؤلاء بغير لغتهم؟ وهل اللغة الأجنبيّة هي التي جعلت قامات هؤلاء تطول؟

تبدوالإجابة تحصيل حاصل، فأغلب

من تصدّوا لهذه المسألة علّقوا الأمر على مشجب الاستعمار، واطمأنّوا إلى ما ذهبوا إليه، وهوفيما يظهر تبرير مقنع يعضّده التاريخ، ويتظلّل به الفرانكفونيون الأوائل في هذه المنطقة من العالم العربي، والسّياسيون الذين جايلوهم، ففي الجزائر مثلا كانت "الظّروف الاستثنائية التي عاشتها الجزائر في فترة الاستعمار الفرنسي، وانتشار الأميّة، واقتصار التّعليم على اللّغة الفرنسيّة، ثمّ فرض اللّغة الفرنسية وآدابها وحضارتها على الجزائريّين."٢ سببا في توجّه أبناء الجزائريين اضطرارا لا اختيارا إلى المدارس الفرنسيّة لا رغبة في العلم فحسب، بل للحصول على وظيفة، أوربّما لتحسين وضع اجتماعيّ، لكن لا ينبغي أن نغضّ الطرّف عمّا كانت تضطلع به مدارس جمعيّة العلماء المسلمين، منذ ثلاثينيّات القرن الماضي وحتّى الاستقلال، من دور رياديّ في تعليم اللغة العربيّة للنّاشئة، والجهود التي كانت تبذلها في ربط الشباب الجزائري بلغته الأمّ دون أن تعترض على تعلّمه اللغة الفرنسية إيمانا منها بضرورة تعلّم لغة العدوّ لأمان شرّه.

ولعلّ هذا ما يفسّر توزّع المثقّفين الجزائريين غداة الاستقلال على فئات ثلاث من حيث لغة تعبيرهم: المفرنسون، وهم الكثرة الغالبة، والمعرّبون ومزدوجواللّسان.

أمّا في المغرب وتونس، فإن الأمر يختلف قليلا، ذلك أنّ دخول فرنسا إليهما لم يأخذ شكل الاستيطان كما هوالشأن بالنسبة إلى الجزائر، بل عُدّ كما اُصطلح على تسميته حماية، ولذلك أبقت فيهما السلطة الفرنسيّة على المدارس العربيّة، ثمّ إنّ وجود صَرْحي المعرفة الشامخين: جامع القرويّين بالمغرب، وجامع الزيتونة بتونس كان كفيلا بسدّ مهبّ الريح أمام كلّ محاولات طمس للّغة أوعبث بتراثها.

ومن هنا، يمكننا فهم الألم الذي اعتصر قلب الأديب والشاعر الجزائريّ الكبير "مالك حدّاد"، وهويصرّح، ذات يوم، بعد الاستقلال: "إنّ اللغة الفرنسية هي منفاي"، فلم يكن ثمّة بدّ من الكتابة، لم يكن في وسع من كانوا في وضع "مالك حدّاد" إلّا الاختيار بين أن يبدعوا بلغة المستعمر، وإمّا أن يصمتوا ويمتنعوا عن الكلام المباح، لقد حُكم على "محمّد ديب" و"كاتب ياسين" و"آسيا جبّار" و"مالك حدّاد" وغيرهم بالإقامة الجبرية على أرض لغة الآخر الغاصب المحتلّ القويّ، فكانت الكتابة بتلك اللّغة إدانة لهذا الحكم، وثورة عليه، كانت المفارقة أنّ الكتابة بلغة الآخر إثبات للهويّة وتثبيت لها، وصنع للاختلاف والتمايز، وفي هذا الصّدد يكتب مالك حدّاد في مجلة "النّقد الجديد" الفرنسية: " بصدق، أشكر اللغة الفرنسيّة التي سمحت لي بأن أقدّم خدمة لوطني الفقير والجميل"٣ .

وتقصّي أنحاء النّظر في الأدب الجزائريّ المكتوب بالفرنسيّة في خمسينيّات القرن الماضي× يقيم الدّليل على ما نذهب إليه ، فلم تكن ثلاثية "محمد ديب" "الدّار الكبيرة" و"الحريق" و"النّول" التي صدرت بين سنتي ١٩٥٢ و١٩٥٧إلّا صرخة من عمق المجتمع الجزائري في وجه المستعمر، كشف من خلالها الروائي الممارسات الاستبدادية، ونقل فيها معاناة الشعب الجزائريّ، وتنبّأ فيها بقيام الثورة الجزائريّة، كما لم تكن روايات "التّلميذ والدّرس" و"سأهبك غزالة" لمالك حدّاد إلّا رصدا لإحداثيّات حركة شعب يتحسّس مواطىء قدمه في طريق بحثه عن هويّته المستلبة، والأمر ذاته نلفيه في روايات الأديبة "آسيا جبّار" ففي "أبناء العالم الجديد" و"الجازعون" و"المرأة التي لا قبر لها" التزمت الموقف نفسه وهوتسخير الكتابة لخدمة الوطن، أمّا رواية "نجمة" ل "كاتب ياسين" فقد خرقت مألوف الرواية لا بجماليّتها التي تجاوزت أفق توقّع النقاد الفرنسيين قبل غيرهم، بل بقدرتها أيضا على احتواء مسألة هويّة الجزائر من خلال تقرّي إحداثيّات واقع جزائري تحت نير استدمار بغيض .

رواية، لغة، هويّة :

وعلى الرّغم من ذلك، فقد تعالت بعض الأصوات تدعوإلى تصنيف هذا الضّرب من الأعمال الأدبيّة ضمن خانة الأدب الفرنسيّ على اعتبار لغته، أداته، تعبيره، فاللّغة لا يمكن أن تقف على الحياد، وليس بوسعها أن تتنصّل من تاريخها وتراثها وحمولتها الثقافيّة، فقيل: "نعم، اللّغة معيار أوليّ في تحديد هويّة الإبداع." وإزاء هذا الشّطط، تحسن بنا الإشارة إلى أمرين: يتعلّق أوّلهما بردّ الفعل الفرنسيّ الّذي أقصى هذه النصوص من مدوّنته الإبداعيّة، واجترح لها توصيفا مناسبا "الأدب الفرانكفوني" معترفا ضمنيّا بصوته، بلغته، نافيا عنها انتماء حضاريّا ومنكرا عليها هويّة ثقافيّة بحكم رفضه لفرنسا المستعمرة، وبراءته من أيّ التزام تجاهها.

أمّا ثانيهما، فيتعلّق بفكرة التّصنيف

القوميّ أوالقُطريّ للأدب، فأغلب النقاد والدّارسين المعاصرين، والجزائريين تحديدا، عدّوه "جزائريا وكفى، مع الحرص على تمييزه دائما بعبارة المكتوب بالفرنسية أوذوالتعبير الفرنسي، ولم يشغل[وا] أنفسهم كثيرا بطرح السؤال: لماذا هوجزائري؟"٤

بل إنّنا نذهب أبعد من ذلك فنقول: إنّ الذين اشتغلوا على هذه المدوّنة تحليلا ودراسة وترجمة من الإخوة في المشرق العربي يكاد الإجماع ينعقد بينهم على أنّ هذا الأدب جزائريّ صميم، ولعلّنا بحاجة لأن نسوق مثالا لذلك من تجربة الباحث والمترجم "سامي الدّروبي" الذي قال في مقدّمة ترجمته للثلاثيّة: "ليس [هذا الأدب] من الأدب الفرنسيّ في شيء."٥

ونحسب أنّ مثل هذا النّفي الجازم لا يمكن أن يصدر إلّا بعد محاورة الأعمال، وإصاخة السّمع لصوت الرّوح التي تثوي بين جنباتها، وهوغاية ما انتهت إليه الباحثة "سعاد محمد خضر" من عكوفها المطوّل على دراسة الأدب الجزائريّ المعاصر لمّا صرّحت: " إنّما هوأدب جزائريّ مضمونه يعكس تقاليد وثقافة وحياة فئات من الشعب الجزائري المختلفة، ولكنّه مكتوب باللّغة الفرنسيّة، وتعتبر الجزائر وأدبها تجربة فريدة في تاريخ الآداب القوميّة."٦

وأيّا كان الحكم، فإنّ لهذا الطّرح استثناءات لا ينبغي لنا إنكارها، وحالات إبداعيّة نزعت منزعا خاصّا يمكن الولوج إليه عبر منافذ عديدة، تاريخيّة وسياسيّة وحضاريّة لكنّ أقصى ما يتّسع له المقام هنا هوتعاطي هذه الإبداعات مع الواقع الجزائريّ آنذاك ، فهي، وإن لم تكن موالية للمستعمر، منتصرة للغته، مدافعة عنه، فإنّها سخّرت اللّغة الفرنسيّة للبحث عن هويّة إثنوغرافيّة أمازيغيّة، وللتّعريف بثقافة المنطقة التي ينتمي إليها، ويمكننا في هذا الموضع أن نستدعي عناوين روايات أثارت جدلا كبيرا في صفوف النّخب الجزائريّة الوطنيّة المثّقفة التي استغربت صمت أعمال كلّ من "مولود فرعون" و"مولود معمّري" عن الأوضاع التي تعيشها الجزائر آنذاك، وانغماسها في الاحتفاء بهويّاتها المحلّية والتّعريف بعاداتها وتقاليدها بلسان فرنسيّ مبين ، وتجاهلها كلّ آصرة تربطها بالوطن، لقد كان هؤلاء فعلا ثمرة سياسة استعماريّة سعت إلى طمس الملامح، وتذويب المقوّمات، فلا غرابة إذا أن يرفع "مولود فرعون" عقيرته بسؤال تردّدت أصداؤه في ردهات قلعة المفرنسين دعاة الإدماج حين قال: "من نحن؟" إنّه بلا ريب، سؤال مروّع يدلّ على شرخ كبير في الهويّة تُشكّل اللّغة فيه قطب الرّحى.

وقد حدا هذا التوجّه ببعض المثقّفين من التّيار الوطني إلى وصف رواية "الربّوة المنسية" لمولود معمّري ب"ربوة التنكّر"، ممّا جعل الرّوائي يتنبّه إلى هذا المأزق الثقافيّ الخطير ، فيصدر بعد فترة وجيزة رواية "نوم العادل" التي عدل فيها عن مساره الأول، واتّجه صوب المجتمع الجزائريّ وثورته التي كانت قد اندلعت لتوّها، ليكتب بعدها رائعته "الأفيون والعصا".

وفي المقابل أبْدَى مثقّفواليمين الفرنسي استحسانهم وترحيبهم بمثل هذه الأعمال الأدبيّة، واعتبروها "نجاحا كبيرا لرسالة التّعمير الفرنسية في الجزائر." على حدّ تعبير الباحث المتخصّص في الأدب المغاربيّ والجزائريّ "جان ديجو".

في هذه الآونة التي كان فيها الجزائريون يعيشون التمزّق والحيرة، التردّد بين الإحجام أوالإقدام على الكتابة بالحروف الفرنسية، كان التّونسيون والمغاربة يتمتّعون ببعض الحريّة في الاختيار بين الكتابة باللغة الأمّ أوالكتابة بلغة دولة الحماية، كان واقع أولئك الكتّاب مختلفا، فإحساس "إدريس الشرايبي" و"أحمد الصّفريوي" وعبد اللّطيف اللّعبي" وغيرهم من الروائيين، بالعزلة، هوالذي جرّهم – فيما نحسب - إلى تفضيل الكتابة بلغة الآخر.

كان ذلك زمن الاستعمار. واصلت أغلب الأسماء التي أنف ذكرُها سَيْرَها (محمّد ديب، مولود معمّري..)، ووقفت الأخرى تضبط بوصلتها، وتحدّد تموقعها داخل المشهد الأدبيّ، ومن هؤلاء مالك حدّاد الذي قرّر أخيرا التوقّف عن الكتابة لأنّه وصل إلى قناعة مفادها أنّ على الكتّاب الجزائريين الذين تكوّنوا ثقافيّا في محاضن المعرفة الفرنسيّة أن يغادروا مواقعهم للأجيال الجديدة، في حين صَمَتَ "كاتب ياسين" فترة غير قصيرة ليتّجه بعدها إلى الكتابة بالدّارجة الجزائريّة خاصة المسرحيّات.

الرواية بالفرنسية: الإرث والتزلّف:

توالت أجيال ما بعد استرجاع السّيادة الوطنية، ورُسّمت اللغة العربيّة لغة وطنيّة ومقوّما أساسيّا من مقوّمات الهويّة الوطنية إلى جانب الإسلام، وانتُهجت سياسة التّعريب في الجزائر، وواجهت هذه السّياسة العديد من الانتقادات والتحدّيات

والضّغوط، وطفقت اللّغة العربيّة تستعيد عافيتها وعنفوانها بالتّدريج، وبرزت في السّاحة الأدبيّة أسماء جديدة تكتب باللّغة العربية الشّعرَ والقصّةَ والرّوايةَ، تقابلها أسماء أخرى، آثرت القبوع في أعطاف اللغة الفرنسية، وعُدّ الأمر آنئذ طبيعيّا من زاوية إيجاد مسوّغ لهؤلاء المخلّفين من فترة ما قبل الاستقلال بالاحتكام إلى الإرث الاستعماريّ وارتداداته على مدار عشريّتين أوأكثر.

أمّا أن يُتعامل مع اللّغة الفرنسيّة بوصفها قَدَرا مكتوبا، أو"غنيمة حرب" أو"ثروة للثّقافة الجزائريّة" كما ذهب أحد الكتّاب المفرنسين إلى التصريح به مُتَبَاهيا، فذلك الذي أشعل فتيل سِجالات وصلت أحيانا إلى الصّدام في أوساط النّخب المثقّفة في الجزائر.

فالمتدبّر للمشهد الروائيّ الجزائريّ وحتّى المغاربي، المكتوب باللغة الفرنسية، يقف على كمّ حقيق بالنّظر والدّراسة

والتّمحيص، وجدير بأن يُقرأ في ضوء معطيات عديدة يمكن وفقها تصنيف الكتّاب إلى:

- من واصلوا الكتابة عن التحوّلات التي عاشتها المنطقة، وخاصة الجزائر في تسعينيّات القرن الماضي، كتب هؤلاء الروائيّون عن ذواتهم، عن هويّاتهم، عن تاريخهم، وحتّى عن الآخر، ويمكن عدّهم امتدادا لجيل ما قبل الاستقلال، ومن أشهر من يُذكر في هذا الموضع: الأديبة آسيا جبّار، ومحمّد ديب، وإدريس الشرايبي من المغرب...
- من شرعوا في كتابة الرّواية بعد الاستقلال بفترة، ونظرا لخصوصيّة وضع هؤلاء، وتوزّعهم على أكثر من اتّجاه، وذهابهم مذاهب شتّى في مواقفهم من الكتابة باللغة الفرنسية، فإنّنا نؤثر إدراجهم ضمن أطر بعينها تتناغم مع ما يمثّلونه، وما ينادون به:
- فئة تَعرِف اللغة العربيّة، ويمكنها تطوير آليات الكتابة بها لكنّها تتخّذ موقفا مناوئا للّغة العربية، وتدعم وجود اللغة الفرنسية في الجزائر، ومن الغريب أن يكون هؤلاء من أبناء المدرسة الجزائرية التي عرّبت جميع مناهجها، من هؤلاء: سليم باشي، وبوعلام صنصال، وكمال داود وغيرهم ممّن يدورون في فلكهم من المغاربة خاصّة.

و لمّا رأينا أنّ الأمر يبدي حاجة ملحّة للظّفر بتفسير مقنع ، أوتبرير منطقيّ لمثل هذا الموقف، فإنّنا استعنّا ببعض الدّراسات×× التي تعنى بشأن الفرانكفونية في المغرب العربيّ، وألفينا الأعمّ الأغلب فيها يُجمع على أنّ ذلك يرتدّ إلى النشاط الفرانكفوني المتزايد التي تضطلع به النّخب السّياسيّة والثّقافيّة الفرنسية التي تحرص على بقاء هذا الجزء من العالم تابعا لها ثقافيّا وفكريّا لأسباب قد لا يتّسع لها هذا المقام، وهكذا كان، فقد "صار للفرانكفونيّة في المغرب العربيّ ضغط أكبر، وسعة انتشار أعرض، في الحقبة الراهنة، ممّا كان عليه ضغطها وحضورها في الماضي، يشهد على ذلك النشاط الثّقافيّ المحموم للمؤسّسات الفرانكفونيّة في الوسط الثقافي المغاربي."٧

وليس بخافٍ على كلّ ذي تبصّر ما صارت تتضح به روايات بعض ممثّلي هذه الفئة، في الآونة الأخيرة من تسفيه للتراث العربي طال التاريخ الإسلامي وشخصيّاته، بل إنّ بعضا من هذه الرّوايات نافست المستشرقين المغرضين في حملات التّشكيك والتسفيه والإساءة إلى الرسول –صلّى الله عليه وسلّم–، ورواية "صمت النبيّ" ل "سليم باشي" عيّنة بيّنة لهذا التوجّه، وليس من تفسير أوتبرير يساق في هذا الإطار إلّا التزلّف لتلك الدوائر الثقافية السياسية المشبوهة ومغازلتها بدافع الرغبة في حصد الجوائز، وقنص الألقاب، بل إنّ هؤلاء لا يتورّعون عن الارتماء في أحضان أطراف ثقافية فرنسيّة يهوديّة وصهيونيّة يسعفونها في شرعنة وجود لهم في الجزائر بعد أن غادروها مع المستعمر، أويكونون أبواقا لها فيما تروّج له من طروحات، وينضوي تحت هذه الدائرة، كثيرون أبرزهم "بوعلام صنصال" خاصة في روايته "القرية الألمانية".

وهكذا، فإنّنا لا نملك إلّا أن نشاطر المثّقف والباحث عبد الله الركيبي الذي ندّد بهذا المنزع قائلا: " أمّا الآن، فإنّ ما يُكتب بهذه اللّغة هوشذوذ عن القاعدة، وخروج عن الواقع الطبيعيّ المألوف، بل تحدٍّ سافر للتّاريخ والثّوابت."٨

- فئة تحسن اللّغة الفرنسيّة وتعرف اللّغة العربية، تُقرّر ،بعد فترة من الكتابة باللّغة الفرنسيّة، التّحوّل إلى الكتابة باللغة العربيّة، موقفا فكريّا ، وقناعة إيديولوجيّة، ويمثّل الروائي المخضرم "رشيد بوجدرة" رأس حربة في هذا التوجّه الذي بدا مغضوبا عليه ، فلم يُحرز أيّة جائزة من قبل الدّوائر الثقافية الفرنسية على الرّغم من علوّ قامته الأدبيّة على كلّ الأسماء الواردة في الفئة الأولى، بل إنّ "بوجدرة" كان مرُشّحا وافر الحظّ إبداعيّا للفوز بجائزة " الجونكور" للرّواية، لكنّ

مواقفه المؤيّدة لإحلال اللغة العربيّة مكان الصّدارة في الجزائر كانت سببا في إقصائه، كما جرّت عليه تصريحاته القويّة سُخطَ طائفة المفرنسين الموالين لفرنسا وللغتها، الجاحدين المنكرين عظمة اللغة العربية، فقد صبّ جام غضبه عليهم في أكثر من محفل، ومن ذلك قوله:" وإنّني أندّد ببعض هؤلاء الكتّاب المفرنسين، الذين يكتبون باللغة الفرنسية، والذين يعانون عقدة تزعم أنّ اللغة العربيّة غير قادرة على الأداء الأدبي، وهي قادرة أكثر من غيرها أوبنفس إمكانيّة وقوّة اللغات الأخرى وغزارتها، هذا من الحمق والجهل... يقولون هذا الكلام لأنّه يعجب الفرنسيين ويصفّقون له."٩ إنّ "بوجدرة" يفسّر العلّة في تهاطل الجوائز على المنضوين ضمن الفئة الأولى، وتهافت وسائل الإعلام الفرنسيّة عليهم، وليس أدلّ على ذلك من الحفاوة البالغة التي حظي بها الكاتب الجزائري الفائز بجائزة الجونكور "كمال داود" الذي نسف العديد من الثوابت في روايته الأخيرة "ميرسوالمحاكمة المضادّة"، ومثل ذلك ما يروّج له الروائيّ "بوعلام صنصال" الذي أعلن في العديد من المرّات، وبصلافة بالغة أنّنا "حاولنا أن نجرّب عمليّة التعريب، وكنّا نعتقد أنّ اللغة العربيّة هي الملائمة للجزائر، ولسوء الحظ، وعلى الرغم من عمليّات التعريب ظلّ الجزائريّون لا يجيدون التكلّم والتعبير والكتابة بالعربيّة، لذلك اللغة العربيّة ما زالت ضعيفة عندنا، ولهجتنا المحلّية غير صالحة للكتابة الأدبيّة، فاللغة الوحيدة التي يمكننا أن نكتب بها هي اللغة الفرنسيّة.١٠"

- فئة ثالثة تتقن اللغة العربيّة حدّ الأكاديمية، تحسن الفرنسية، تكتب الرّواية العربيّة لسنوات طويلة، ثمّ فجأة تتحوّل في إحدى المنعرجات الحاسمة من تاريخ الجزائر، وهي مرحلة التسعينيات، إلى الكتابة باللغة الفرنسية، وغدا الأمر في ظرف قصير تقليعة إبداعيّة، وعمّت حالة من التّململ الثقافي بلغت في بعض الأحيان، حدّ الفوضى، فقد لفّ الغموض كلّ شيىء، وراحت العديد من الأقلام الروائيّة التي تكتب باللغة العربيّة أوالفرنسية تقلّب الأزمة على وجوهها، تستقرىء تفاصيلها، وتقرأ ما شفّ عنها لتُيَمِّمَ به شطر الضّفة المقابلة من المتوسّط، تزجيه إليها، تغازلها، تسعفها بإجابات عن الممكن والمحتمل، عن سؤال مروّع أقضّ مضاجع الجزائريين: من يقتل من؟ وفتحت دور النّشر ذراعيها لهؤلاء، وجرى التّعامل مع بعضهم لاجئا سياسيّا، ومع البعض الآخر كاتبا فوق العادة "للنّوايا الحسنة.

وانهمر سيل من الرّوايات في هذا المجرى، كتب "واسيني الأعرج" و"الأمين الزّاوي" و"مرزاق بقطاش" و"أحمد منّور"، روايات باللغة الفرنسية بعد حطّهم الرّحال لفترة غير قصيرة على مرابع كتابة الرّواية باللغة العربيّة، ثمّ إنّ هؤلاء أساتذة جامعيّون تخصّصوا في اللغة العربيّة وآدابها كما دُرج على تسمية أقسام الأدب في الجامعات الجزائريّة.

ولئن كان اتّخاذ الأزمة الجزائريّة في التسعينيات لُحمة في حياكة نسيج الرّوايات، واصطناع اللغة الفرنسية سدى لها قد كفل لبعضهم ذيوع صيت، أوتوسيع مدارات انتشار، فإنّه ينبغي التنبّه إلى العديد من الحيثيّات الخاصّة التي حفّت ذلك، ومنها:

- قوّة الوقائعيّة المرجعيّة، وحرارة الشّهادة، ونضرب المثال هنا بالروائيّ الجزائريّ ذي الاسم المستعار "ياسمينة خضراء" الذي لم يكن ليحرز ذلك النجاح، ولا ليحقّق تلك الشهرة في فرنسا والعالم، لولم يكن قد تقدّم بكونه ضابطا سابقا في الجيش الجزائريّ عايش أحداث التسعينيات، واكتوى بأتونها، وقد صارت "الشهادة على رعب اليوميّ في هذا البلد منذ فترة، مسارا مفروضا على نصوص الكتّاب الجزائريين الجدد الذين ينشرون في فرنسا."١١ هذا من جهة.

ومن جهة أخرى، لقد عرف "ياسمينة خضراء" أكثر بالرّواية البوليسية التي عُدّت "غير مألوفة في الأدب المغاربي قبل سنة ١٩٩٠."١٢ وقد ضرب فيها بسهم وافر.

- ركوب بعض الكتّاب موجة التزلّف للأطراف الفرنسية التي تَتَوسّم فيها تعاطفا مع ما يجري في الجزائر في تلك الفترة، أوتبدي استعدادا لاحتواء المثقّفين المضطهدين ، أوالمهدّدين، وهنا أبدع بعض هؤلاء في اختلاق الأضاليل والإغراق في التّهويل، وتمرير خطابات هجوميّة بنبرة عالية الحدّة، بشكل وَشَى بتملّق سافر وانبطاح ممجوج.
- وفي المقابل، اشتغل روائيّون على نفس التيمة، وضربوا على الوتر نفسه، لكن بلغة عربيّة شاعريّة جميلة، فكان

حظّهم نجاحا أكبر، وشهرة أوسع ، ولعلّ الحفاوة التي قوبلت بها رواية "ذاكرة الجسد" لأحلام مستغانمي" والمقروئيّة التي حازت عليه تقيمان الدليل على بطلان المزاعم السابقة، وعلى أنّ حجّة الانتشار والمقروئيّة والانفتاح واهية، مع العلم أنّ "مستغانمي" مزدوجة اللغة، حائزة على دكتوراه علم اجتماع من "جامعة السوربون".

وقصارى ماننتهي من هذا الطرح هوأنّ الرّواية المغاربية- الجزائريّة المكتوبة باللغة الفرنسيّة، قد شطرت الروائيّين طرائق قددا، لا شك أنّها أضافت إلى الأدب المغاربيّ عموما ما يمكن أن يصيّرها رافدا ثقافيّا ثرّا ولونا ذا خصوصية وتميّز من ألوان الإبداع الرّوائي خاصة في المرحلة الاستعماريّة، مع ذلك الجيل من الرّواد من أولئك الذين كتبوا بالفرنسية فبرّأوا ساحتهم، ولم يُخلفوا موعد التّاريخ، كتبوا الوطن والهويّة والواقع ، رسموا بحروف لغة المستعمر ،مجبرين لا راغبين، مأساة شعبهم، وأمله في غد الحريّة والانعتاق، لقد كانوا بحقّ "فرانكوجرافيين" francographes أكثر منهم "فرانكفونيين" francophones عبّروا بالفرنسية، كتبوا روايات جزائريّة لغتها عربية لكن بحروف فرنسيّة لاتينيّة أكثر.

ولا نملك ههنا إلّا أن نطرح السّؤال المحرِج الذي ظلّ يلحّ علينا منذ البدء: ما الذي يمكن أن يضيفه روائيّواليوم والأمس القريب لأدب هذه المنطقة؟ ما الذي بمقدوره الإسهام به، مع العلم أنّ الجيل الحالي معرّب بنسب عالية جدّا؟

إنّنا لا نغالي إذا قلنا إنّ هذه الرّوايات الجديدة التي تتكاثر كالفطر يوما بعد يوم، قد تنتظم ذات يوم في سياق ثقافيّ حضاريّ خاصّ تتمّ وفقه بتر كتّابها عن كلّ جذورهم، فتغدوهويّتهم شوهاء، وملامحهم باهتة، ذلك أنّهم

لا ينفكّون ينخرطون في حماسة احتفاء بعض الأوساط الفرنسيّة بهم، والتي لا تني تغريهم بحاجة اللغة الفرنسيّة إليهم، من خلال استثمار عربيّتهم فيها، وتسريب خطابات خادعة برّاقة تفيد "أنّ اللغة العربيّة هي التي ستستعمر هذه اللغة الفرنسية من الآن فصاعدا، إنّها تغذّيها، وتكثّفها، وتلوّنها."١٣ ثمّ إنّ أغلب هؤلاء قد انتقلوا للإقامة على أديم تلك اللغة، والتظلّل بسمائها، فكان من اليسير عليهم هجرانها ثمّ نسيانها، ف "لا تغيير للمكان من دون عقاب: قد ينسى المرء لغته، وبعبارة أخرى قد يصبح آخر. كثير من المغاربيّين، وكثير من العرب يمكنهم اليوم أن يتعرّفوا على أنفسهم في قصة آدم. فهم، بكيفيّة أوبأخرى تعلّموا لغة أجنبيّة "فنسوا" لغتهم."١٤

وهكذا، بدأت الرواية المكتوبة بالفرنسية في المغرب العربي ثائرة ثوريّة متمرّدة على المستعمر بلغته، منفيّة إليها، فاضحة أساليبه، كاشفة ممارساته، وانتهى بها الأمر بعد نصف قرن من الاستقلال، إلى تمرّد على اللغة الأم واستهانة بها، واثراء للغة المستعمر، وتمسّح بأهدابها طمعا في حظوة، أوتزلّف لأبنائها رَوْماً في انتشار .

فهل يمكن بعد كلّ هذا نعتها بالمغاربيّة أوالجزائريّة المكتوبة باللغة الفرنسية؟

الهوامش:

٢- سعاد محمد خضر، الأدب الجزائري المعاصر، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٦٧،ص ١٢٥.

× خمسينيات القرن العشرين هي الفترة التي بدأت تعرف ظهور أدب جزائريّ مكتوب باللغة الفرنسية، قائم بذاته خاصة في جنس الرواية، يقف في مقابل الرواية الفرنسية التي كتبها فرنسيون ولدوا في الجزائر وعاشوا فيها أمثال "ألبير كامو" و"جان سيناك" و غيرهم.

٣- نقلا عن كتاب:

Jean Déjeux، La poésie algérienne de ١٨٣٠ à nos jours، Editions publisud، paris، ١٩٨٢، p٨٨.

٤ – أحمد منور، الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، دار التنوير، الجزائر، ٢٠١٣، ص ١٣٨.

٥- محمد ديب، الثلاثية، ترجمة: سامي الدروبي، دار الطليعة، بيروت، ١٩٦٨، ص

٦- سعاد محمد خضر، الأدب الجزائري المعاصر، ص ٤.

××- من الدراسات الأجنبيّة: كتابات الباحثين الأكاديميّن الفرنسيّين "شارل بون" و"جان ديجو"، ومن العربيّة كتابات كلّ من مصطفى الأشرف، وأبي القاسم سعد الله، وعبدالكبير الخطيبي...

٧- عبد الإله بلقزيز، الفرانكفونيّة (أيديولوجية. سياسات. تحدٍّ ثقافي لغوي)، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، ٢٠١١، ص ٣٦.

٨- عبد الله الركيبي، الفرانكفونيّة مشرقا ومغربا، دار الرّواد للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٣، ص ٨٩.

٩- شاكر نوري، منفى اللغة، حوارات مع الأدباء الفرانكفونيين، كتاب دبي الثقافية ٤٨، أفريل ٢٠١١، ص ٨٤.

١٠- المرجع نفسه، ص ٧٠.

١١ – Charles Bonn، Etapes de l'emergence de la littérature maghrébine de langue française au regard de sa réception، in La Réception du texte maghrébin de langue française، Editions Cérès، Tunis، ٢٠٠٤، p٣٣.

١٢ – Ibid، p٣٣.

١٣ – Ecrivains du monde arabe، Ma langue est mon territoire، Editions Eden، Paris، ٢٠٠١، p٩.

١٤- عبد الفتّاح كيليطو، أتكلّم جميع اللغات، لكن بالعربيّة، تر: عبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال للنشر، ٢٠١٣، ص ٩.